

توثيق

الحبس الانفرادي: أصوات من الجحيم

جين كسيلاً. جيمس ريدجواي وسارة شراود (تحرير): الجحيم مكان متناهي الصغر - أصوات من الحبس الانفرادي. Jean Casella, James Ridgeway and Sarah Shroud (Eds.), Hell is a very small place: voices from solitary confinement. the new press, new york - london 2016. 240 pages.

يقال إن السجن مكان لإعادة تأهيل نزلته، أو لمنهم من إحقاق الضرر بالبشر والممتلكات، أو لمعاقبتهم على ما ارتكبوه من مخالفات بحق القانون العام والخاص. هذا هو المفترض، مع أن الإحصاءات تقول إن ما يزيد عن ثلثي نزل السجون في العالم هم من أصحاب السوابق. أما الحبس الانفرادي داخل السجون، فقد استحضرت بداية من أجل منح النزيل أو المدان فرصة لتأمل ما ارتكبه من مخالفات قانونية، بما يساعده في التوبة وسوق حياة مستقيمة بعد انقضاء فترة الحكم. هذا كله افتراض، لكن الحقائق غير ذلك تماماً كما سنرى في كتاب «الجحيم مكان متناهي الصغر - أصوات من الحبس الانفرادي» الذي حزره جين كسيلاً، وجيمس ريدجواي وسارة شراود.

قبل الانتقال إلى أصوات الذين عانوا من الحبس الانفرادي لمدد متباينة، وجب التنويه إلى أن إحدى محوري المؤلف سارة شراود، عانت نفسها الحبس الانفرادي في إيران بين عامي 2009 و2010 دام 410 أيام، وكانت قبل ذلك مقيمة في سوريا لتعليم

دراسة

«مهندسو الجهاد»... التربية هي الأصل؟

دييغو غامبيتا وستيفن هرتوغ: مهندسو الجهاد - العلاقة الغربية بين التطرف العنيف والتربية والتعليم.

Diego Gambetta and Steffen Hertog, Engineers of Jihad: the curious connection between violent Extremism and Education. PUP, Princeton 2016. 208 pages.

نجد أنفسنا أمام ظاهرة جديدة نوعاً ما، هي ما يعرف بصفة الإرهاب، وهو عمل مقصود به إحقاق الضرر بفرد أو مجموعة من البشر، أياً كانت أعمارهم وانتماءاتهم، وما إلى ذلك، وعادة لا تكون لهم علاقة بالشخص المقصود، بغية توصيل رسالة ما. لكن ثمة مقولة، قد تكون صادمة للبعض، تقول: عندما تخفق كافة التحليلات الاجتماعية، الطبقة وغير الطبقة، لشرح ظاهرة ما وفهمها، لا يبقى أمام المرء سوى اللجوء إلى التحليل النفسي والاستعانة به.

المؤرخان دييغو غامبيتا وستيفن هرتوغ يعيدان الأعمال الإرهابية إلى نحو قرنين من الزمن، مع أن ثمة مؤلفات تدعي أن الإرهاب قائم منذ العصر الإغريقي. لكن إذا عدنا إلى العصور الحديثة، فإن اغتيال الأمير النمساوي فرديناند وزوجته، في صربيا، يعد عملاً إرهابياً، من منظور

التلاميذ العراقيين عقب الغزو الأميركي واحتلاله. صوت سارة شراود مهم لأنها عانت جنوناً مؤقتاً قبل أن تستعيد حياتها الطبيعية، ما أمكن. وعندما عادت إلى بلادها، اكتشفت أن السجن الانفرادي يمارس هناك على نحو روتيني حيث يصل عدد المحبوسين انفرادياً في أي وقت إلى نحو مئة ألف من البشر، فقررت ترك عملها وأوقفت نشاطاتها وحياتها لمحاربة السجن الانفرادي في بلادها وسجلت معاناتها في «سجن إيفين» الإيراني بكلمات خالية من رغبة الانتقام.

تصوري سيدتي القارئة سيدي القارئ أنك مسجون في غرفة صغيرة، لا تتجاوز مساحتها أربعة أمتار. لا ترى أي بشري، فتبدأ في الظن أنك وحدك في هذا العالم الصغير، أو في هذا (الصندوق)، كما تُعرف الزنزانة الانفرادية لدى المساجين. ثلاث مرات في اليوم يلقي إليك بصحن طعام من فتحة الباب، وقد تكون محظوظاً إن رأيت يد السجان، وحظك أكبر إن تبادل معك بضع مفردات. لكن في السجون الحديثة، فإن كل شيء يتم آلياً، فلا تتواصل مع أي كان. حتى إن سُمح لك بالخروج من الزنزانة للتجوال لمدة ساعة، مرة كل بضعة أسابيع، فإنه يتم آلياً، ما قاد إلى ولادة صناعة جديدة هي السجون ذات الحراسة المشددة.

بداية، عندما يلقي بك في الزنزانة، تبدأ في الصراخ وكيل السباب والشتم للسجان ولكل من تعرف أنه سبب لك هذا المصير. قد تمر أيام من دون أن تتوقف عن الصراخ في زنزانة العزل، وردد عليك بالبذاءات ذاتها. ثم تصاب بالإرهاق والتعب، فتتوقف، لكي تعود مجدداً. تمر أيام على هذا الحال إلى أن تنهك قواك

فتغرق في نوم عميق يريح جسدك وروحك. وعندما تستيقظ، تعود الدورة مجدداً. تكون قد توقفت عن الصراخ، لكنه يلاحقك في كل دقيقة. تحاول تجاهله عند سماع صوت فرشاة الأسنان وهي تنظف أسنانك، أو عندما تتناول أدويةك. تحاول إبعاد الصراخ بالقراءة.

في السجن الانفرادي، كما تقول المحررة، تكون محاطاً بمحيط رمادي يحاصر من كل الجهات، يهدد وجودك وعقلك وكيانك وإنسانيتك. في السجن الانفرادي تتفوق أعداد المنتحرين عن أي مكان آخر. بعضهم يصاب بالجنون، بالمعنى الحرفي، فيجلدون أنفسهم إلى أن تدمى جلودهم، وآخرون يقطعون أعضاءهم التناسلية، وآخرون يلتهمون برازهم، وفقط «المحظوظون» منهم هم من يتمكنون من الانتحار. لكن البعض الآخر يتكيف أو يتأقلم مع السجن الانفرادي، وهو، برأي العلماء، دليل على فاعلية السجن الانفرادي. فانت تستيقظ كل يوم لتدرك أنك منسي من كل معارفك، أو هكذا تتصور. إنه الموت الاجتماعي لأنك معزول عن العالم ومن غير المسموح لك التواصل مع أي كان، سوى سجانك، إن كنت محظوظاً.

أحد المشاركين في كتابة هذا المؤلف، الذي يجمع شهادات 26 سجيناً سابقاً، هو محام أرجنتيني اختطفته أجهزة «الخونتا» وألقت به في السجن حيث تعرض للتعذيب. عندما سقط النظام العسكري واستعاد حريته، عينته الأمم المتحدة مسؤولاً عن مسائل محاربة التعذيب. حاول زيارة السجون الأميركية وتعرف إلى ظروف الحبس الانفرادي، فمنعته السلطات لأن قادة تلك البلاد



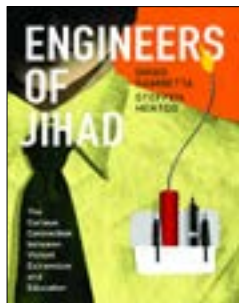
ولدت هذه العقوبة مع ولادة الدولة الأميركية

يعرفون قول دوستويفسكي «إن مقياس حضارة أمة من الأمم هو كيفية معاملتها سجنائها»، وسجل واشنطن في هذا معروف، يمتد من «أبي غريب» إلى «غوانتانامو». والسجن الانفرادي في الولايات المتحدة عادة ما يرفق به اعتداءات جسدية مثل الضرب والاعتصاب، إضافة إلى منع العلاج عن المساجين المرضى حتى الموت، وتزويدهم بطعام عفن لا يصلح للأكل. انطلاقاً من هذا المنظور، أعلنت الأمم المتحدة أن ممارسة السجن الانفرادي لفترة تتجاوز الخمسة عشر يوماً يرتقي إلى مستوى التعذيب، لذا وجب منع ذلك قانوناً، لكن ليس ثمة من مستجيب في واشنطن.

يذكر المؤلفون الثلاثة القراء بأن عقوبة الحبس الانفرادي هي اختراع أميركي بامتياز، ولد مع ولادة الدولة الأميركية قبل ما يزيد عن مئتي عام. في عام 1790 تم توسيع سجن «والنت ستريت» ليضم أيضاً زنزين عزل بعدما ازدادت الجرائم في محيطه. الهدف كان منح السجين فرصة للتأمل ومن ثم التوبة (penitent)، التي اشتقت منها اسم المجمع الإضافية، أي (مركز الندم) (Penitentiary House). الحبس الانفرادي ابتدعه مجموعة من طائفة الكويكرز بهدف التخلص عن المعاملة العنيفة الخشنة لبعض السجناء مثل الجلد. لكن المؤرخ الفرنسي الشهير الكسي دو توكفيل، سجل عام 1821 أن الحبس الانفرادي لا يقوم البشر بل يكسرهم ويقتلهم، بينما يصاب البعض بالجنون.

مع مرور الزمن، تحول الحبس الانفرادي إلى عقاب، ولنتذكر في هذا المقام قضية المجنونة الأميركية تشيلسي منتغ، التي اندلعت أخيراً بسبب تسريبها وثائق إلى «ويكيليكس» وحكم عليها بالسجن ثلاثين عاماً، حيث يتهددها الحبس الانفرادي طوال فترة محكوميتها لأنها أدلت بتصريح صحافي لمنظمة العفو الدولية، ما جعلها تقول: أي حكومة قادرة على قتل أي شخص من دون صدور حكم.

المؤلف يحوي أصوات من عانوا من الحبس الانفرادي، وتم تقسيمهم إلى مجموعات: الصامدة، والمقاومة، والساجية. وتختتم الكتاب ملاحظات عن السجن الانفرادي تضم: التأثيرات النفسية للسجن الانفرادي، إضافة إلى كلمة أخيرة للمحامي الأرجنتيني سالف الذكر عن معاناته التعذيب في سجون «الخونتا» الأرجنتينية.



مجموعة كبيرة من الإحصاءات التي تحلل انتماء أفراد هذه الجماعات

إلى الحركات المتطرفة؟ هنا لا بد من التنويه إلى أن الكاتبين أثريا المؤلف بمجموعة كبيرة من الجداول والبيانات والإحصاءات التي تحلل انتماء أفراد كل مجموعة، إسلامية كانت أو يمينية أو يسارية، وطبيعة فكرها الأعضاء والأهداف، وأوصلتهما إلى قناعة بأن طلاب الهندسة والمهندسين هم أكثر الأفراد المحتملين انضمامهم إلى الحركات الإسلامية العنيفة، مع استثناء واحد هو السعودية، حيث عدد المهندسين في الحركات الإسلامية العنيفة هناك

في كولومبيا إلى «الجيش الأحمر» في ألمانيا (الغربية) ضمن التحليل، وتحت المجهر، ما يسوغ نبذه لمصطلح إرهابي. يتعامل المؤلف على نحو أساسي مع ملامح الحركات الإسلامية في مختلف بقاع العالم، ومع مستوى تعليم «الجهاديين» وطبيعته. ومن هذا المنظور، قسم العامل التعليمي إلى ثلاث مجموعات رئيسية هي: أفراد متحاربون (militant) ولدوا في دول إسلامية وينشطون فيها، ومسلمون متحاربون ولدوا في دول عربية وتربوا فيها، وأفراد غير عنيفين في مختلف الدول الإسلامية. ويضيف إلى هذه المجموعات متطرفين إيرانيين قبل الانتفاضة الشعبية الناجحة ضد الشاه وحكمه، ومتطرفين إسلاميين تخلوا عن أعمال العنف. هدف المؤلف الرئيسي هو معرفة الأسباب التي تدفع أفراداً إلى الانخراط في أعمال عنف، وهذا يتعلق بالإسلاميين أساساً، وغير المسلمين من اليمين واليسار. الوصول إلى الهدف مرتبط، في منظور الكاتبين، بالإجابة عن أربعة أسئلة هي: ما الشروط الاجتماعية الاقتصادية التي تشرح أسباب انضمام البشر إلى جماعات متطرفة؟ هل ثمة مجموعة من البشر في وضع عقلي (mind-set) يساعد جاهزيتها للاستسلام لإغواء التطرف؟ ما الذي يساعد مجموعة من الناس على اختيار أفراد يرون أن ثمة مؤهلين للانضمام إلى مجموعات متطرفة؟ هل يمارس الفكر أو الأيديولوجيا دوراً في طبيعة أي نوع من الناس سينضمون

قليل. الكاتب يستحضر أمثلة عديدة، ومنها مثلاً الجهاديون - والصفة للكاتب. 845، وفق أرقام مركز توثيق تابع لـ «كينغز كوليدج» اللندنية، الذين توجهوا إلى سوريا والعراق عام 2013/2014، امتلك 28 رجلاً منهم شهادة جامعية، من بينهم 8 مهندسين! ومن هنا يأتي عنوان المؤلف.

أخيراً، نذكر المجموعات التي غطاها هذا البحث الأكاديمي وهي: «الجيش الأحمر» (بارد ماينهوف) في ألمانيا الغربية، «الجيش الأحمر» في إيطاليا، «حركة فتح»، «حركة حماس»، الحركات الإيرانية المعادية للشاه مثل «مجاهدي خلق» وغيرها، و«الإخوان المسلمون» في مصر، و«جبهة العمل الإسلامي» في الأردن، و«حزب التحرير» في سوريا، الإسلاميون المنشقون في السعودية، «حزب العدالة والتنمية» في المغرب، «الجماعة الإسلامية» في الهند، حزب «عموم ماليزيا الإسلامي»، النواب المنتخبون إلى جماعات إسلامية في البرلمان الكويتي، «الجهاد الإسلامي» في مصر، «الجماعة الإسلامية» في مصر وإندونيسيا وماليزيا وسنغافورة، و«الجهاد الإسلامي» الفلسطينية، وجماعات «القاعدة» الموزعة على مجموعة من دول العالم غير الإسلامي، وهي السويد والدانمارك والبوسنة وإيطاليا وهولندا وأمريكا والمملكة المتحدة وإسبانيا وفرنسا وكندا وأستراليا ونيوزيلندا وكينيا والفلبين والهند، إضافة إلى مجموعة من الحركات اليمينية واليسارية في الغرب وروسيا.